

السفسطة المعاصرة في كتاب (السنة الرسولية والسنة النبوية) لمحمد شحرور

د. عبدوش العباس / د. بوسنه فتيحة
جامعة تيزي وزو

Abstract: Engineer Mohamed Chahrour with his writings represents an exemplary paradigm of cotemporary sophism on which we will work to clarify its features through the study of his book Apostolic Sunnah and prophetic Sunnah aiming at refuting its fallacies from the title to almost every paragraph.

تلاعب خصوم السوفسطائيين بمصطلحي **Sophie** و **Sophistes** (الحكمة- الحكماء) منذ أفلاطون وأرسطو إلى يومنا هذا، حيث أضافوا إلى أنفسهم صفة محب الحكمة **philo /Sophie** وحذفوا السابقة **so** قبل **phistes** التي صارت تعني الكذب، أو تركوا السابقة **so** وأعطوا الكلمة مجملة معنى قديما وهو **sofistique** التي تعني الزخرفة والبهرج، واسمين به خطاب هؤلاء المشاغبيين وفلسفتهم.

أشار أوليفي روبول **Olivier Reboul** " إلى إن فلسفة السوفسطائيين وبلاغتهم قد كادت أن تطمس، وأنا لا نعرف السوفسطائيين سوى من خصومهم" أما **جاكلين دو روميلي jacqueline Deromilly**¹ فتعبر عن الجانب الإيجابي حيث "كان السوفسطائيون وقت ذلك ضروريين لأثينا في مثل الضرورة التي يمكن أن تكون للفيزيائيين الكبار في فترة حرب نووية"² وهو الجانب الذي أخفي أو شوه على الرغم من القيمة التاريخية والفلسفية والبلاغية التي ميّزت نشاط السوفسطائيين، والتي يقول عنها هنري مارو **Henri Marrou** "إن أي تاريخ للفلسفة أو العلوم يجد نفسه مضطرا لتخصيص فصل للسوفسطائيين، هذا الفصل الذي من العسير كتابته، نادرا ما يكون شافيا"³ أما **كريستيان بلانتان Christain Plantin** فيذهب أبعد من ذلك بالقول: "... لقد أمكن لأثارهم أن تقارن بآثار فلسفة التنوير، والسمعة السيئة التي ضلت ملتصقة باسمهم راجعة تماما إلى التشويه الذي فرضه على تفكيرهم ممارستهم انتقادات أفلاطون، وينبغي لكل مقاربة للحجاج السائد أن تأخذ بعين الاعتبار ما حققته السوفسطائية من مكتسبات"⁴.

إن التاريخ قد راكم الإساءات إلى إرث جماعة السوفسطائيين بأن قام خصومهم منتقدهم باستعمال أسلحتهم ذاتها، لكن بعد حذف عمقها الفكري ووجهها

المضيء، والإبقاء على الجانب المخادع والمغرّر، وملخص ذلك "جعل الفكرة الأضعف أقوى" و"أنّ الأشياء تختلف باختلاف الأسماء وباختلاف الإنسان المستعمل لها" وسيستعمل خصوم السوفسطائيين هذين الشعارين وغيرهما كثيرا عاربين من خلفيتهما الفكرية، بل إنّ كثيرا من مغالطي العصر (السوفسطائية الخفية) يستعملون أسوأ ما في بلاغة أولئك، دون أن يطلعوا على تراثهم، لذلك يلاحظ أنّ طريقة المغالطين الجدد متمسة بكثير من الفوضى وعدم الانسجام.

يلاحظ الباحث في بلاغة الحجاج عموما وفي بلاغة السفسطة خصوصا أن الدارسين قد ركزوا على الحجة ذاتها دون السياق الذي يجري فيه التحاجج؛ بمعنى أنهم نظروا إلى صدق القضية المتحاور بشأنها وكذبها دونما اهتمام بأدوات أخرى يستند إليها طرفا الحوار، وهي أسلحة قد تكون ظاهرة وقد تكون خفية، كأن يكون أحد الطرفين مزودا بسلاح حقيقي وحراس فعليين أو يكون ذا سلطة ومال، لكن الطرف الثاني عطل من كل ذلك، وهو ما عبر عنه الشاعر قائلا :

إن الغني إذا تكلم كاذبا قالوا صدقت وما نطقت محالا

أما الفقير إذا تكلم صادقا قالوا كذبت وأبطلوا ما قالا

إن المتتبع للحوار الذي يجري بشأن الإسلام (ولا نقول التحاور)، يلاحظ أن محاورى الإسلام، (إن لم نقل مناوئيه)، هم الأعلى صوتا وهم الأقدر على توجيه الحوار كيفما شاءوا، لا لأنهم الأصوب، بل لأن المسلمين في حال من الضعف لا تدانيها حال وعليه، فهم بالضرورة الأضعف حجة والأكذب قضية.

ويكفي في مثل هذا السياق أن يتزود المحاور للإسلام بترسانة من المصطلحات التي يصف بها نفسه مما هو إيجابي في عين العصر وفي أعين المتغلبين، وترسانة أخرى من النعوت السلبية ينعت بها الإسلام والمسلمين، دون خشية من أن يطالب (أي المحاور للإسلام) بالدليل على مطابقة الصفات للموصوف، لأنه في كلّ الأحوال الأقوى حجة مادام يصف نفسه بالعلمية والعقلية ضد الأصولية والنصية، وبالتقدمية والانفتاح مقابل الرجعية والانغلاق، وبالتجديد والحداثيّة مقابل التخلف والقدامة إلى آخر قائمة طويلة من الثنائيات التي يرمي بها على طاولة الحوار وفي وجه كل من يمثل الدفاع عن الإسلام، إذ إنّ الطرف الأوّل يحتمي بظهير قوي من السلطة الداخلية وبظهير أقوى من السلطة الخارجية (الغربية تحديدا) بكل ما لديها من أدوات التسلط الإعلامية والسياسية والاقتصادية، لكن الأتكي من كل ذلك هو أنّ الطرف الأوّل يتّهم الطرف الثاني بأنّه هو من يستند إلى هاتين السلطتين الداخلية والخارجية، كما لو أنّ هذين بالفعل يمثلان المسلمين ويعملان على التمكين للإسلام، والملاحظ أنّ هذه السفسطة (التي نسميها خارجية

لأنها تدور بأسلحة من خارج الخطاب يشتد أوارها كلما ازداد المسلمون ضعفا والخصوم قوة كما هو الشأن في الفترة الأخيرة.

يمثل محمد «شحرور» بكتاباتِه أنموذجا أمثل للسفسطة المعاصرة المشار إليها آنفا، والتي سنعمل على إيضاح معالمها في كتابه "السنة النبوية السنة الرسولية-روية جديدة" من خلال مقالنا هذا الذي ارتأينا أن يكون إضاءة أولية فحسب ضمن سلسلة من الردود التي تهدف إلى محاورة الكتاب وتفنيد المغالطات التي يحفل بها منذ العنوان مرورا بكل فقرة فيه تقريبا، وهي مغالطات ما كانت لتشغل بالنا -لأنها تحمل تهافتها بنفسها-لولا افتتاحان بسطاء القراء بها ممن ليس لهم تمرّس بهذا الضرب من الأساليب وممن ضعفت محصلّتهم الدينية، بحيث تبدو لهم كتابات الرجل فتوحات لأنها تصادف هوى، خاصة عند ضعاف النفوس الذين يجدون في كتاباته -دون أن يشعروا-فرصة شرعية تُحلّمهم من التزام تكليف ينقل عليهم، إذ إنّ هذه الكتابات تدعى لنفسها حبّ الدين والرغبة في تنقية الخطاب الديني من شوائبه، دون المروق من الإيمان، فهي بذلك تنقذهم من حرج التحلّل من الالتزام، وتدغدغ عاطفتهم الإيمانية المتبقية إذ تطمئنهم على عدم المساس بها، وسنحاول من خلال الإجابة عن الأسئلة الإشكالية الآتية : ما أوجه مغالطات السوفسطائيين المعاصرين؟ وما أمثلتها في كتاب محمد «شحرور» (السنة الرسولية والسنة النبوية)؟ ما الذي يظهر منها على السطح وما الذي يخفي فيوقع القارئ في أحابيله ويضرب الإسلام في الصميم؟ ثم ما الحجج السليمة في الرد على هذه السفسطة؟

تسلّك هذه السفسطات المغالطية استراتيجية دقيقة، تخفي أهدافها وتظهر نوايا أخرى، هي ضرب من التعمية على تلك الأهداف لكي لا تظهر، وتعد أولى هذه الخطوات:

1- سفسطة الحداثي⁵ : **Appel to novelty** وتسمى في اللاتينية **Argumentum ad Novitatem** يتم فيها الحكم بصدق أمر لمجرّد أنّه حديث أو يرتبط بالحدّثة. ووجه البطلان في ذلك أن جدّة الشيء وحدّثته لا يلزم عنها بالضرورة أنّ هذا الشيء صحيح أو أفضل من شيء آخر، فصحة أمر ما وأفضليته تتعلّقان بمسائل خاصة معلومة تتصل أساسا بشأنه المنطقي المعرفي". إضافة إلى تسريب مفاده أنّ النية (في ما يقومون به) هي التجديد من باب "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت".

تستمد سفسطة الحداثي حجتها وسلطانها من سياقين:

أ- **سياق خارجي** شامل سياسي وفكري، يعد فيه الخطاب الإسلامي متهما حتى قبل أن يجهر بالصوت، فهو متهم بالإرهاب ومعادات كل ما هو حضارة

وعقل، وكلّ ما هو محبّد لدى موجهي العصر وصنّاع قراراته المهيمنة على كلّ الأصوات.

ب- **سياق داخلي** يرمى بشكل مباشر أو يوميء بشكل غير مباشر إلى إسكات كل صوت معترض بأنّه إنّما يعترض على الحداثة والعصرنة والتجديد... الخ القائمة المقدّسة من المصطلحات التي تحمل وجهة في ذاتها، وتبطن اتهامها للمعترض بأنّه منغلّق وباليّ وقد عفا عليه الزمن، في قائمة من الصفات الموازية. انطلاقاً من هذه الاستراتيجية التي تتجلى تارة وتخفي تارة أخرى يختار «شحرور» عنوانه كونه ومقالاته بعنوانين من قبيل:

- الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة.

- نحو أصول جديدة للفقهاء الإسلاميّين.

- السنّة الرسولية والسنة النبوية: رؤية جديدة.

إنّ كلمة (الجديد) المتكررة في كتابات الرجل لا تحمل قيمة ما في ذاتها، إذ من البديهي أن يدّعي كل مخالف لرأي سائد بأنّه مجدد، لكن ماذا لو كان الرأي السائد أكثر استناداً إلى المنطق رغم استمراره منذ زمن قديم، وأنّ الرأي المخالف لا يحمل من الوجاهة سوى دعواه بأنّه مجدد، فضلاً عن أن كلمة الجديد قد تطلق عند العرب على ما يتكرر دون توقف فهم سمّوا الليل النهار بالجديدين لأنّهما يتكرران، من هنا قول الرصافي عن الفقيرة

كرّ الجديدين قد أبلى عبايتها فانشق أسفلها وانشق أعلاها

وينطبق الأمر بشكل ما على كلمتي الحداثة والعصرنة المُصلّتين سيفاً في وجه أي اعتراض، مع أنّهما وعاءان زمانيان -بغض النظر عما يضاف إليهما من قيم- يكادان يكونان افتراضيين، إذ ماذا يُفهم من العناوين أعلاه لأولئك الذين سيقرؤونها بعد قرنين من الزمن؟ بل ماذا نقول عن كتاب في القرن 18 يسمى نفسه معاصراً؟ وما أكثر الكتب التي تسمت بهذا الاسم بعد الحربين العالميتين وليس لها من ذلك إلا الاسم.

بناء على ما سبق نفهم كيف أنّ «شحرور» يسمي الفصل الأول من كتاب **السنة الرسولية السنة النبوية** :- نقد معاصر لمفهوم السنة التراثي، ويسمي الفصل الثاني :- **قراءة معاصرة للسنة**.

يضعنا العنوانان أمام معادلة، يمثل طرفها الأول النقد المعاصر والقراءة المعاصرة، ويمثل طرفها الثاني المفهوم التراثي، فالحجبة والصواب من نصيب الطرف الأول بطبيعة الحال ما دام النقد والقراءة معاصرين، والخطأ والتهاافت من نصيب المفهوم التراثي لمجرّد أنه تراثي، ويقودنا هذا الكلام إلى الضرب الثاني من السفسطة وهو:

2- سفسة التراثي Appeal to Tradition وتسميتها اللاتينية

Argumentum Ad Antiquitatem غير أنّ الإشكال في هذا الحجاج أنّه سيف ذو حدّين، إذ يتمّ النظر إليه عند المشتغلين بالحجاج من وجهه الموجب، فبدل "التدليل على صحة القضية بالأدلة العقلية المقبولة يتم في هذا الأسلوب الحجاج بقيمتها التراثية وأصالتها قدمها"⁶، لكن «شحرور» يعكس الآية فيقدم التراث لا من جهة قداسته وأصالته، بل من جهة قدامته وتخلفه كأن يقول: "... لقد كنّا في غنى عن التعرض بالنقد للشيخ وكتابه، لولا أن وجدنا فيه نموذجاً ومثلاً لسيل من الكتب مازال بعضها مقرواً للتدريس في معاهد وكليات الشريعة، يسهم في تأسيس فكر خرافي لدى الناشئة يرسم صورة أسطورية لقدرات النبي (ص) الخارقة بنحو يجعل الناسي به مستحيلاً"⁷.

تحمل كلمتا نقد وتراثي صفة قذحية، انطلاقاً من منظور مغالط يرى أنّ التراث لغة من رث أي بلى، في حين أنّ التراث من راث يريث ريثا الرجل أبطاً،⁸ ومنه تريث وريثما أي في انتظار أن...، وعليه يمكن القول بأنّ كلّ معاصرة هي إلى تقادم، إذ كل قديم كان جديداً في عصره، وكل تراث يبطل في انتظار قراءة جديدة به، لكن المغالطة السفسطائية تقلب القيم دون أن يشعر المتلقي بحالها.

يستند هذا الإصرار من محمد «شحرور» على وصف قراءته بالمعاصرة وعلى وصف الفهم التراثي للسنة بالتخلف إلى هدف مبيت هو الإيمان بأنّ كلّ شيء إلى تحوّل وتطور انطلاقاً من "أنّ الوجود مادة أولية متطورة، وأنّ تطوره تطوّر ألي ذاتي، وهذا التطوّر خاضع لما زعموه قانون الجدل"⁹ إن مقولة التحوّل التطور هذه تبطن منهج الرجل، في كلّ جزئية من كتابه كما يفسّر على سبيل المثال قوله: "... بسبب الانقطاع المعرفي الذي أحدثته صناعة الحديث والتشبيث به كوجي حاكم عليه، وتقديس حقبة تاريخية زمانية معيّنة بأسطرتها وجعلها المثال الذي يجب أن تنشأ وتسير كل المجتمعات على نسقه مهما كان عصرها. ما دفع الأمة إلى هاوية التخلف والدوران حول الذات، وعدم القدرة على التفاهم مع الآخر حضارياً ومعرفياً ودينياً وتاريخياً"¹⁰.

إنّ هذا التعليل الذي يتكئ إلى أنّ الثبات على مبادئ حقبة بعينها، هي حقبة حياة الرسول صلى الله عليه وسلّم وصحابته الكرام هو سبب التخلف وعدم التطوّر يمكن الرد عليه بعكس المسألة، أي بأنّ فقدان الأمة لهويته وعدم ثباتها على سنّة نبيها، جعلها عرضة لتلاعب الأزمنة بها، وفقدانها لموقع قار تحاور من خلاله الأمم والحضارات الأخرى، ففي الحديث الصحيح الذي رواه سعيد بن أبي مريم قال: حدّثنا أبو غسان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد رضي الله عنه: أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم قال: (لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر،

وذراعاً بذراع، حتى لو سلخوا جحر ضب لسلكتموه) رواه البخاري/رقم 3269، فضلاً عن أحاديث أخرى مشهورة كثيرة تحض على التمسك بالسنة والثبات على ذلك، لكن المصادر على المطلوب -وهي خطوة أخرى في المنهج المغالطي- تصر على إلغاء كل ما من شأنه أن يكبح جماح هذه الرغبة في نسبة فهم السنة إلى متطلبات التطور وتحولات العصر، هذه الرغبة التي حكمت كل أزمنة السقوط تحت دثار التجديد فلم تؤد إلا إلى مزيد من التردّي.

يلاحظ أنّ من السفسطات ما يتعلّق بمنهج القراءة، وبزاوية النظر التي يتخذها هذا المنهج بحيث تنسب الصفة إليهما (أي إلى المنهج والقراءة) كالقول مثلاً نقد معاصر، قراءة معاصرة، رؤية جديدة، منظور حدائثي، وهو ما ينطبق على النوعين السالفين، في حين أنّ هنالك ضرباً من أساليب السفسطة تتعلّق بطرفي الخطاب هما المرسل (هنا الكاتب أو قارئ التراث) والمرسل إليه (هنا المتلقي من أي نوع كان) ومن أمثلة هذه الأساليب:

1- **سفسطة الخبير** Appel to authority وتسميتها في اللاتينية Argumentum ad verecundiam: "وقد يبلغ الأمر بالسفسط في بعض الأحيان حدّ الادعاء بأنّه هو ذاته خبير ومرجع في المجال الذي يدور حوله الكلام"¹¹ لكن الإشكال في هذه الحالة متعدد الأوجه، منها أن يكون المرسل خبيراً بالفعل وهو يستغل مكانته العلمية الحقيقية، في حين أنّ القضية التي يعرضها خاطئة، لكنّه ينجح في فرضها من موقع سلطته تلك، وقد يكون مجرد مدع للعلم في ذلك المجال لذلك أثرنا أن نسمي هذا الضرب: سفسطة المتعالم. بل إنّ من هذا النوع من يدّعي المكانة العلمية في مجالات علمية متعدّدة بما يخدم هدفه العام من جهة، ويغالط متلقيه في كل تلك المجالات وهو ما ينطبق على «شحرور» إذ إنّّه يحاول أن يضرب سهماً في كل علم يمت بصلة إلى موضوع الكتاب، فهو عالم باللغة، عالم بالحديث والفقه، عالم بالتاريخ والرجال، عالم بالنفس والاجتماع، لكننا في هذه العجالة سنقف عند:

أ- **سفسطة المتعالم اللغوي**: يلج «شحرور» مضمار اللغة العميق وهو العطل من أسلحتها¹² ففي صفحة 26 يورد العبارة الآتية: "ومنذ ذلك الحين أصبح الفقه توأمان، بغض النظر عن ماهية هذه السلطة، وطنية أو غير وطنية، عربية أو وغير عربية، لأن أصل نشأة الفقه كانت في ظل السلطات المستبدّة"، فضلاً عن ركافة الأسلوب فهو يرفع خبر أصبح "توأمان" بدلا من "توأمين"، كما أنّه عاد بالضمير على النشأة في حين أنّ الضمير يفترض أن يعود على كلمة "أصل"، إذ إنّ "أصل" هي اسم أنّ، أمّا "كان في ظل" جملة فعلية في محل رفع خبر أنّ، ثم هو سرعان ما يعود بالضمير على كلمة فقه فيقول: "لذا خلا من كل قيم الحرية والتحرر" إذ يبدو أنّ «شحرور» يعاني من توظيف الضمائر وما تعود عليه. كما

يورد فعل فشا بالألف المقصورة فشى في قوله الجائر، حكما والمخطئ علميا والخاطئ لغويا: "... أما الإدراج فمصطلح أوجده هامانات الأمة عقب وفاة النبي (ص) بعشرات السنين يتجنبون به اتهام الرواة بالكذب بعد أن فشى الاعتقاد بمعصوميتهم"¹³. مع أنّ الكاتب قد ذكر في أعلى الصفحة حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنّ الحديث سيفشو عليّ" مما يدل على أنّ «شحرور» يجهل القاعدة التي يستند إليها في كتابة الفعل المقصور، إذ إنّ يفشو بالواو ماضيه فشا بالألف الممدودة في حين أنّ ما ماضيه بالألف المقصورة يكون مضارعه بالياء (مشى، يمشي) وفي الصفحة 41 يقول "فتولد عن ذلك بناء على حديث "العلماء ورثة الأنبياء" نسبة معجزات وكرامات إلى هؤلاء بمن فيهم الصحابة والتابعين" ففضلا عن ركافة التعبير الذي يجمع فيه بين: (توكّد عن ذلك) التي تشير إلى ما سبق (وبناء على) التي تحيل على ما يأتي، مع أنّ التركيبين بمعنى واحد يفيد التعليل، إضافة إلى التعبير (إلى هؤلاء بمن فيهم الصحابة والتابعين) وهو تعبير أقرب إلى العامية، كما أنّه يحوي خطأ نحويا لا يليق بمن يدّعي البراعة اللغوية حيث ينصب المعطوف على المبتدأ المتأخر (التابعين) المعطوفة على (الصحابة) والتي محلّها الرفع، ولو أنّ المجال مجال قراءة كان قرأ الصحابة بالجر أو النصب بما أنّه نصب المعطوف على المبتدأ.

ولكي يتضح ما نرمي إليه يكفي القارئ المهتم أن يتمعن في بعض فقرات تقديم الكتاب كالفقرة التالية التي يبدؤها بشبه الجملة: "فمنهم من اعتمد عليها واعتبر (لا إكراه في الدين) منسوخة، ومنهم من أهملها من باب غض النظر: وطورا أخذ آية (لا إكراه في الدين) وكلاهما في التنزيل الحكيم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى اعتمدوا على الحديث النبوي وكلاهما وظف هذا الحديث في خدمة أغراضه، وجرى توظيفه وتطبيقه أكثر بكثير مما جرى تطبيقه من آيات التنزيل الحكيم"¹⁴.

إنّ القارئ الموضوعي والمتجرد من الاستسلام للهوى يلمس شدة الركافة الواضحة، فعلى من يعود الضمير في اعتمد، أخذ، كلاهما (الأولى) وكلاهما (الثانية)، والضمير في اعتمد؟ وعلى أي أساس يستعمل أسلوب العطف في الفقرة كلاً من مثل " وظف هذا الحديث في خدمة أغراضه وجرى توظيفه" الخ؟

إن كثرة الأخطاء في التراكيب وشدة الركافة في الأسلوب لا يضاهاها في الكتاب إلا كثرة المغالطات العلمية والسفسطات الحجاجية مما لا يسع المجال لتقصيه؛ لكن الكاتب يعمي على كلّ ذلك بكثرة التشقيقات والاشتقاقات التي يحاول أن يبيّن للقارئ اعتماده فيها على المعاجم اللغوية والمادة العلمية الرصينة. إنّ لسفسطة الخبير وجهها آخر غالبا ما يخفى على الناس وهو:

ب- **سفسطة استغلال الجهل Appeal to Ignorance**: هي تخفى على الناس لأن سفسطة العالم أو الخبير قد تكون بين علماء كما تكون بين من يجهلون الموضوع، أي أن الحجاج يقوم هنا على استغلال جهل المخاطب، حيث "لا يكون المخاطب في غالب الأحيان جاهلاً، فالمسفسط هو الذي يوحي بذلك، أي أنّ الأولى أن نقول إن الأمر يتعلّق ب "تجاهل" المسفسط لحق العارض في الدفاع عن معروضه وهذا ما يميل إليه المعاصرون..."¹⁵

ويتأكد استغلال الجهل باللغة في التلاعب بالمادة المعجمية بشكل قد لا يظهر لغير المتفحص، حيث يخلط كلمة سنّة التي أصلها (سنّ) من باب المضاعف والمطابق مع باب السين والنون وما يثلثهما سنه حيث السين والنون والهاء أصل واحد يدل على زمان والكاتب في كلّ ذلك يعتمد معجم المقاييس في اللغة لابن فارس مخضعا الأمر لأهدافه الخفية ولتوضيح ذلك نعتمد الخطاطة التالية:

سنّ: السين والنون أصل واحد يدل على الزمان

مدلول (1): ومما اشتق منه السنّة معروفة

سنّة: السين والنون والهاء أصل واحد

مدلول (2): يقال سنهت النخلة أتت عليها الأعوام

وقوله تعالى: "انظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه"

فهو ينقل عامدا مدلول المادة 2 ليربطه بالمدال 1 ليفيد أنّ السنة تدلّ على

التعفن (السنّه) وعلى وجوب التغيير.

ولو أنّنا أردنا أن نجمل المدلولات الأقرب إلى مادة سنّ للاحظنا ما يلي:



اختار «شحرور» المعنى الأخير لأنه يعبر عن مراده المشار إليه أنفاً، وكان الأنسب اختيار المدلولات الأقرب إلى الموضوع، بل إن الرجل ليلوي أعناق الآيات القرآنية ذاتها لتتناسب مع مراده ذلك، فيورد الآيات:

1 " قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين" الأنفال 38

2- "لا يؤمنون به وقد حلت سنة الأولين" الحجر 13

3- " سنة الله في الذين خلو من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا" الأحزاب

38

4- "يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم" النساء 26

ثم يخرج بنتيجة مفادها أن(الآيات تصرّح بأن سنن الأولين قد خلت مضت، وهذا ينفي عنها صفة الأبدية، لأن أهم صفة للسنة هي(التسننه)16 في حين أن الآيات المذكورة أعلاه كلها تفيد أننا ماضون على سنن من قبلنا، إن خيرا فخييرا وإن شرا فشرا، كما هو واضح من قوله تعالى: "فقد مضت سنة الأولين"، وأما في قوله تعالى "ويهديكم سنن الذين من قبلكم" فهل يهدي الله جلا و علا لما يتسننه ويتعفن؟

إن كثيرا من السفسطات التي يعتمدها «شحرور» لا تأتي فرادى، -خلافا لما ورد في كتب المنظرين للسفسطات القدامى منهم والمتأخرين-بل إنه يتبنى أحكاما هي عبارة عن مغالطة كبرى تحوي سفسطات متعددة، بعضها أصلي وبعضها فرعي. فلتحقيق الهدف المحدد الذي يكرره بصور مختلفة وهو "أن الخطوط العربية لتطور التشريع الإلهي موجودة في الرسالات السماوية حصرا لا في كتب الحديث ولا في كتب الفقه"17. يلجأ «شحرور» إلى سفسطات متعددة لكنّها مركبة، إذ إن:

2- سفسطة رجل القش: Straw Man 18 تأتي متظافرة مع:

3- سفسطة استغلال الجهل 19 Appeal to yonoro: كسفسطتين أصليتين

يضاف إليهما سفسطات أخرى فرعية20، كتجاهل المطلوب، والمصادرة على غيرها.

فالهدف كما هو واضح من الاستشهاد أعلاه، ترك السنة باعتبارها مصدرا للتشريع من أجل القضاء على الأصل الذي هو الكتاب، ففي ترك السنة ترك للكتاب، انطلاقا من قوله تعالى: "وانزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون" النحل 64

إن «شحرور» متكنا على سفسطة رجل القش، ينهال بأسلحته على أعمدة علماء السنة، من أمثال الإمام مالك والصحابي أبي هريرة والرازي وغيرهم، لكن الشافعي باعتباره العمود الأساس يناله من «شحرور» أكبر قسط من الهدم، وما كنا لنجعل الشافعي مثالا لهذا النوع من السفسطة كما أن «شحرور» لا يكفي وحده أو مع غيره من السفسطائيين المعاصرين أن يجعل الشافعي رجلا من قش

وهو من قال فيه الإمام أحمد: "كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن، وهل لهذين من خلف أو لهما من عوض" ²¹، يتجاهل ««شحرور»» قيمة الشافعي ويستغل جهل الناس بذلك علما أنّ الشافعي "ثالث الأئمة الأربعة من حيث حياته في الزمان، ولكن في نفس الوقت واسطة العقد بينهم من حيث شخصيته المتطورة المتجددة التفتح... ²²"، ويمثل النيل من الشافعي الذي يتكرر في كتاب ««شحرور»» نيلاً من مذهب السنة والجماعة، لأنه تلميذ الإمام مالك أستاذ الإمام أحمد الذي يقول عنه "في جملة بليغة مانعة (ما من أحد بيده محبرة إلا للشافعي في رقبته منه)" ²³ فهو رأس مذهب يتبعه ربع الأمة الإسلامية. كما يمثل الإمام الشافعي واسطة وبرزخا بين علماء السنة، فضربه ضرب للأستاذة وللتلاميذ، وهو ما يتضح جليا من قول ««شحرور»»: "وإن كان قد سبق الشافعي العديد من المفسرين والأئمة، كمجاهد وعكرمة والضحاك وسعيد بن جببر والإمام مالك، في ترسيخ فكرة العصمة التكوينية للأنبياء والرسل، ومن بينهم النبي العربي، صلوات الله عليهم أجمعين. إلا أنه بكل تأكيد يُعدُّ أول من رسَّخ بأدلة من التنزيل فكرة أنّ الوحي وحيان في كتابه الرسالة" ²⁴ف««شحرور»» يعترف أنّ حكم الشافعي قد استند إلى أدلة من التنزيل لكن ذلك لم يمنعهُ أن يقول مباشرة بعد ذلك: "وهذا التزوير الذي وضعه الشافعي في الدين الإسلامي ككل حوّله بالفعل إلى دين محلي، حيث أفرد للحديث النبوي مكانا بين مصادر التشريع يأتي فيه - نظريا من حيث شكل الترتيب- بعد كتاب الله تعالى، لكنّه -عمليا من حيث التطبيق- لا يقلّ عنه منزلة وأهمية" ²⁵ يحق لنا هنا أن نتساءل:

- 1- كيف يعتمد الشافعي الأدلة من التنزيل ثم يكون مزورا؟
- 2- ما العلاقة بين القول بأن الوحي وحيان وتحويل الدين الإسلامي إلى دين محلي؟
- 3- من أين جاء ««شحرور»» بالحكم أنّ الشافعي جعل الحديث لا يقل عن القرآن منزلة وأهمية؟

إنّ قراء «شحرور» يجهلون قيمة الشافعي وما يمثله، من هنا يأتي استغلال «شحرور» لجهلهم ذلك، مع العلم أنّ أكثر ما يثير «شحرور» من قضايا قد شرحه الشافعي بل زاد عليه في "الأم" وفي "الرسالة"، وهو ما يحتاج منّا مقالا خاصا نفرده لاحقا لمثل هذه القضايا -إن شاء الله -وسنكتفي هنا بالكلام عن موضوع تعدد روايات التشهد الذي يثيره «شحرور» متجاهلا أو جاهلا ردود الشافعي على ذلك. يقول «شحرور» في الصفحة 16: "...وبالتالي هنالك جملة عوامل أسهمت في تضخيم كتلة ما يسمى «الحديث النبوي» إذ بغض النظر عن اللمز المبطن في قوله: «ما يسمى الحديث النبوي» وكأنه لا يعترف به، فهو يرى بأنّ تعدد الروايات اختلاف، وأنّه سبب في تضخيم عدد الأحاديث، لكن الحقيقة أنّ اختلاف الروايات مقبول عند علماء السلف وعلى رأس هؤلاء العلماء الشافعي الذي لم تقفه مسألة مثل

هذه - لعل هذا ما أغاظ «شحرور» منه-لأنه اختلاف تنوع لا اختلاف مضرة، فهذا الأخير يتعلق باختلاف الموضوع لا الرواية، وهو ما يعترف به «شحرور» ذاته بقوله: "تعدد الروايات والموضوع واحد"²⁶ ثم أنه يورد الروايات العشر للتشهد، لكن تحت مسمى آخر، فيقول:

"1-تشهد ابن مسعود،... 2-تشهد ابن عباس،... 3-تشهد عمر بن الخطاب،..."²⁷ فينسب التشهد إلى الصحابي بدل من أن يسميه رواية، وكأنه يلمح إلى أن التشهد ينتمي إلى الصحابي، وليس مجرد اختلاف في الرواية عن موضوع صادر عن الرسول صلى الله عليه وسلم. ونحن هنا نحيل إلى نص الشافعي كاملاً والذي يعبر عن القاعدة الشرعية التي أصل لها الشافعي في هذه المسألة²⁸ وفي هذا النص، الذي أوردناه في الهامش، من الردود ما يغني ادعاءات «شحرور»، بالإضافة إلى تأكيد قاعدة فقهية معلومة، والتي تتمثل في أن هذا الاختلاف هو ضرب من اختلاف التنوع المقبول لا الاختلاف الضار.

أما ما ورد من سفسطات جزئية في كتاب «شحرور»، فنضرب له مثلاً واحداً بسفسطة تجاهل المطلوب، وهي متضمنة داخل السفسطتين السابقتين (سفسطة رجل القش سفسطة استغلال الجهل)، حيث إن «شحرور» يورد هو ذاته حجة يفترض أننا نحن من يحتج بها عليه قائلاً: "سيصيح بنا الهامانات وجنودهم، خوفاً على امتيازاتهم وتمسكاً بما كان عليه أبؤهم: فماذا تقول في قوله تعالى: "...وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون" النحل 44...، أليس ما قام به النبي (ص) من قول فعل إقرار هو عين (تبيين الذكر) الذي أنزل إليه وعليه؟ أليست السنة النبوية الشريفة هي التي بينت الصلاة وركعاتها الزكاة ونصابها؟ نقول لهم: إنكم تصرون على قراءة التنزيل الحكيم كما تقرؤون صحف الصباح، ناسين أن الذي صاغ هذا التنزيل هو ذاته الذي أبدع نواة الذرة على غير مثال..."²⁹

إن المتمعن في هذه الأسطر يلاحظ أنها مركبة، فيها سفسطة السخرية (سيصيح هامانات الأمة وجنودهم)، وفيها سفسطة العصا: "خوفاً على مكاسبهم وتمسكاً بما كان عليه أبؤهم"، وفيها سفسطة الإغاطة: "إنكم تقرؤون التنزيل كما تقرؤون صحف الصباح"، وفيها سفسطة المتعالم: "الذي صاغ الذرة على غير مثال".

إن المتمعن في كل ما ورد في كتاب «شحرور» السنة الرسولية والسنة النبوية يجد بأنه يرشح بالمغالطات ابتداء من عنوانه، وانتهاء إلى آخر صفحة منه، مما لا يكفي مقال أو مقالان لحصره، وعلى العموم يمكن القول: "إن مدلول السفسطة عند المعاصرين لا يختلف في الجوهر عن التعريف القديم، رغم أنه ينزاح عنه قليلاً، بحيث أصبحت هذه الممارسة تكتسي مدلولاً محدداً يفضل استثمار مفاهيم نظرية جديدة"³⁰ بل إن من السفسطة المعاصرة تركيب السفسطات بعضها على بعض وإضافة أصولها على فروعها إمعاناً في السفسطة.

الهوامش:

- 1 - الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، نقلا عن أوليفي روبول، مدخل إلى البلاغة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، 2014، ص80.
- 2 - م ن، (الهامش) نقلا عن جاكلين دوروميلي، السفسطائيون الكبار في آثينا بيركليس، ص 83.
- 3 - م ن، نقلا عن هنري مارو، تاريخ التربية في القدم ص ن.
- 4 - كريستيان بلانتان، الحجاج، تر عبد القادر المهري، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008، ص 12.
- 5 - لمزيد من الاطلاع على السفسطات المغالطية ينظر: رشيد الراضي الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2010، بيروت.
- 6 - رشيد الراضي، م ن، ص4.
- 7 - محمد شحرور، السنة الرسولية السنة النبوية، رؤية جديدة، دار الساقى، ط1، بيروت 2012، ص38.
- 8 - علي بن هادية وآخرون، القاموس الجديد للطلاب، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط7، الجزائر، 1991، ص363.
- 9 - قطب الريسوني، النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، نقلا عبد الرحمان حبنكة، عن التحريف المعاصر في لدين، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، الدار البيضاء، 2010، ص302، ولمزيد من المعرفة ينظر الفصل الخاص بالقراءة التشطيرية، محمد شحرور أنموذجا.
- 10 - محمد شحرور، م س، ص87.
- 11 - رشيد الراضي، م س، ص 23، 24.
- 12 - للتأكد من صحة هذا الحكم ينظر قطب الريسوني، م س، وينظر أيضا: إبراهيم البيومي غانم وآخرون، بناء المفاهيم، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، الاسكندرية، 2008.
- 13 - محمد شحرور، م س، ص 21.
- 14 - محمد شحرور تقديم الكتاب، ص 9.
- 15 - رشيد الراضي، م س، هامش ص 37.
- 16 - محمد شحرور، م س، ص93.
- 17 - محمد شحرور، م س، ص 88.

- 18 - ينظر رشيد الراضي، م س، ص 16 وما بعدها.
- 19 - ينظر رشيد الراضي، م س، ص 16 وما بعدها.
- 20 - من أجل مزيد من المعلومات ينظر هذا: حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، ج5، ط1، إريد، 2010.
- 21 - مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، الدار المصرية اللبنانية، ط7، 1989، ص 420، نقلًا عن معجم البلدان لياقوت الحموي، ط 17، 300.
- 22 - م ن، ص 417.
- 23 - م ن، ص 421.
- 24 - محمد شحرور، م س، ص 52.
- 25 - م ن، ص ن.
- 26 - م ن، ص 17.
- 27 - م ن، ص 17، 18.
- 28- (قال الشافعي رضي الله عنه في رسالته في باب « ما يعد مختلفا وليس عندنا بمختلف... فقال لي قائل: قد اختلف في التشهد، فروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه سلم أنه كان يعلمهم التشهد، كما يعلمهم السورة من القرآن، فقال في مبتدئه ثلاث كلمات: التحيات لله، فبأي التشهد أخذت؟ قلت: أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمان بن عبد القاري: أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول على المنبر وهو يعلم الناس التشهد - يقول: قولوا: "التحيات لله، الزكيات لله، الطيبات لله، الصلوات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله". قال الشافعي: هذا الذي علمنا من سبقنا بالعلم من فقهاءنا صغارا، ثم سمعناه بإسناده، وسمعنا ما يخالفه، فلم نسمع إسنادا في التشهد يخالفه ولا يوافقنا أثبت عندنا منه، وإن كان غيره ثابتا، وكان الذي نذهب إليه أن عمر لا يعلم الناس على المنبر بين ظهرائي أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلا ما علمهم النبي صلى الله عليه وسلم، فلما انتهى إلينا من حديث أصحابنا حديثٌ ثبتته عن النبي صلى الله عليه وسلم صرنا إليه وكان أولى بنا، قال: وما هو؟ قلت: (أخبرنا) الثقة، وهو يحيى بن حسان، عن الليث بن سعد عن أبي زبير المكي عن سعيد بن جبير وطاوس عن ابن عباس أنه قال: "كان الرسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن، فكان يقول: التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته،

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، قال الشافعي: فإن قال قائل فإننا نرى الرواية اختلفت فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فروى ابن مسعود خلاف هذا، وأبو موسى خلاف هذا وجابر خلاف هذا وكلها قد يخالف بعضها بعضاً في شيء من لفظه، ثم علم عمر خلاف هذا كله في بعض لفظه، وكذلك تشهد عائشة رضي الله عنها وعن أبيها، وكذلك تشهد ابن عمر، ليس فيها شيء إلا في لفظه شيء غير ما في لفظ صاحبه، وقد يزيد بعضهم الشيء على البعض. قال الشافعي: فقلت له: الأمر في هذا بين، قال: فأبنه لي: فقلت: كل كلام أريد به تعظيم الله جل ثناؤه فلعلمهموه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلعله صلى الله عليه وسلم جعل يعلمه الرجل فينسى، الآخر فيحفظه، وما أخذ حفظاً فأكثر ما يحترس فيه منه إحالة المعنى. فلم يكن فيه زيادة ولا نقص ولا اختلاف شيء من كلامه يُحيل المعنى فلا يسع إحالته، فلعل النبي صلى الله عليه وسلم أجاز لكل امرئ منهم ما حفظ كما حفظ، إذ كان لا معنى فيه يُحيل شيئاً عن حكمه، ولعل من اختلف روايته واختلف تشهده، إنما توسعوا فيه فقالوا على ما حفظوا وعلى ما حضروهم، فأجيز لهم، قال: أفتجد شيئاً يدل على إجازة ما وصفت؟ فقلت: نعم، قال: وما هو؟ قلت: أخبرنا مالك بن أنس عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت هشام بن حكيم ابن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها كان النبي أقرانها، فكادت أن أعجل عليه ثم أمهلته حتى انصرف ثم لببته بردائه، فجننت به النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرنتيها. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأ فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هكذا أنزلت ثم قال: "اقرأ" فقرأت، فقال: "هكذا أنزلت"، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فافروا ما تيسر منه".

قال الشافعي: فإذا كان الله جل ثناؤه لرافته بخلقه أنزل كتابه على سبعة أحرف معرفة منه بأن الحفظ منه قد يزل ليحل لهم، يعني قراءته وإن اختلف اللفظ فيه، ما لم يكن في اختلافهم إحالة المعنى، كان ما سوى كتاب الله أولى أن يجوز فيه اختلاف اللفظ، ما لم يُحل معناه، وكل ما لم يكن فيه حكم، فاختلاف اللفظ فيه لا يحيل معناه. وقد قال بعض التابعين: رأيت أناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجمعوا لي في المعنى، واختلفوا في اللفظ، فقلت لبعضهم ذلك، فقال: لا بأس ما لم يحل المعنى. قال الشافعي: فقال ما في التشهد إلا تعظيم الله، وإنني لأرجو أن يكون كل هذا فيه واسعاً، وأن لا يكون الاختلاف فيه إلا من حيث ما تكرت، ومثل هذا كما قلت يمكن في صلاة الخوف، فيكون إذا جاء بكامل الصلاة على أي الوجوه، روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أجزاءه إذ خالف الله عز

وجلّ بينها وبين ما سواها من الصلوات. قال: ولكن كيف صرت إلى اختيار حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلّم في التشهد دون غيره؟ قلت: لما رأيته واسعا، وسمعتة عن ابن عباس صحيحا، كان عندي أجمع وأكثر لفظا من غيره، فأخذت به غير معتّف لمن أخذ بغيره مما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم " انتهى).

29 - محمد شحرور، م س، ص 88.

30 - رشيد الراضي، م س، ص 51.